الإسلام والحضارة العالمية

للدكتور محمد خلف الله أحمد

عميد كلية الآداب جامعة الإسكندرية

يحاول الباحثون المعاصرون أن يعطوا الألفاظ مدلولاتها المحددة ، ليساعدوا بذلك على دقة التفكير ، ووضوح التفاهم بين الناس . ومن الألفاظ التى يعرضون لها ألفاظ (الثقافة) و (المدنية) و (الحضارة) فهى ألفاظ كثيرة الدوران على الألسنة ، وفى الكتابات المختلفة عن الاجتماع البشرى ، وما يحدث فيه من رقى أو تأخر ، ومن تأثير وتأثر .

ونحن — فى المرحلة الحاضرة من حياتنا فى مصر وفى سائر الأمم الإسلامية، نعنى كثيرا بهذه الموضوعات، فنكتب الكتب والمقالات فى شأنها ، ونذيع الأحاديث عنها، ونحضر المؤتمرات المحلية أو الدولية لدراستها ، ومن الخير أن تكون مدلولاتها واضحة فى أذهاننا .

ولعل معظم الباحثين اليوم يتفقون على أن كلمة (ثقافة) عندنا تقابل مايسميه الغربيون « Culture » فبين اللفظين شبه فى أصل المعنى ، إذ كلتاهما تعنى التهذيب والتربية والتنمية ، ومن هنا أصبح المدلول العام لكل من هاتين الكلمتين ـ العربية والأفرنجية ـ الجانب الروحى المعنوى من حياة الفرد أو الجماعة : فثقافة مصر ـ مثلا ـ تتمثل فى دينها وعاداتها وتقاليدها وفنونها وآدابها وفلسفتها ومذاهبها فى الحياة ، وقل مثل ذلك حين نتكلم عن الثقافة الإسلامية ، أو الثقافة الغربية .

أما كلمة (مدنية) فمن السهل أن نصطلح على أن نعنى بها جانب العلم والمادة والاختراع من حياة الأمم : فالمدنية الغربية ـ مثلا يقصد بها ذلك الرقى العلمى والمادى الذى حققته أوربا وأمريكا فى العصر الحديث والذى قام على أساس الطريقة والنظريات

العلمية وما أدت إليه من اختراع ، ومن تسخير لقوى الطبيعة ، وتحكم فى عناصرها ، وما كان لذلك من أثر فى المعيشة وأساليبها ، وفى السلم والحرب ، والصناعة والزراعة وما إليها .

ويجرى بعض الكتاب على استعمال كلمة (حضارة) فى هذا المعنى أيضاً فهى عندهم مرادفة فى الاستعمال لكلمة مدنية ، وكلتاهما على هذا تقابل الكلمة الغربية Civilization

ولكننا ـ هنا ـ سنستعمل كلمة (حضارة) فى المعنى الواسع الذى يشمل (الثقافة والمدنية) ، أى يشمل ظواهر الحياة الروحية والحياة المادية كلتيهما . فإذا تحدثنا عن حضارة الإسلام ـ مثلا ـ قصدنا بها ما وضعه الإسلام من أسس للعقيدة والأخلاق ونظم الحياة الفردية والجماعية وما أنتجته البيئات الإسلامية من أدب وفن وفلسفة ، وما وصل إليه علماء تلك البيئات من نظريات ، وما أبدعوه من مخترعات . وإذا تحدثنا عن الحضارة الإنجليزية فى القرن التاسع عشر ـ مثلا ـ عنينا بها كل تلك المقومات فى حياة الإنجليز فى ذلك القرن .

ومن المشاهد أن الغربيين يعنون عناية كبيرة بتاريخهم الحضارى ويدرسونه فى مدارسهم وفى جامعاتهم ، وهم يعتبرون دراسة تاريخ حضارتهم ركنا أصيلا فى دراسة أدبهم ولغتهم وعلومهم . ونحاول نحن فى نهضتنا الحديثة أن نسايرهم فى هذا ، وأن نعنى بابراز المقومات الكبرى والمعالم الرئيسية لحضارتنا الاسلامية ، حتى يكون شبابنا على علم بها وذكر لها . ولكننا لم ننتج بعد كتبا صالحة فى هذا التاريخ الحضارى يقرؤها الشباب المتعلم ، ويثقف بها الجمهور . صحيح أننا ألفنا فى الأدب والفن والفلسفة والتاريخ والعقلية الاسلامية ، وكتبنا بعض رسائل فى جوانب من العلم ، ولكن جهودنا فى هذا أشبه بالجداول المنفصلة لم تؤلف بعد نهرا جاريا ، فهى لاتزال جزئية ينقصها الروح العام الذى يكون من كل هذه الفروع كلا حيا مترابطا هو تاريخ الحضارة الاسلامية .

ولا شك أن الوقت قد حان للعناية بهذه الناحية فى مناهج التربية الاسلامية فى المرحلة الثانوية وفى الدراسات العالية . ومن الخطأ أن يظن أن العناية بهذه الناحية تهم طائفة واحدة من الباحثين والمفكرين ـ وهم الذين يدرسون الأدب

والفن والفلسفة الاسلامية مثلا - فإن رجال العلوم فى طبهم وهندستهم وطبيعتهم وكيمائهم مطالبون أن يصلوا ما انقطع من سلسلة الجهود العلمية الاسلامية ، وأن يضعوا أمام طالب العلم تاريخا كاملا محققا للفرع الذى يدرسه : فلست أفهم أن يتخرج طالب مصرى فى كلية للعلوم - مثلا - دون أن يدرس تاريخ الجهود الاسلامية فى علوم الحيوان والنبات والطبيعة والكيمياء والرياضة ، ودون أن يضع هذه الجهود فى مكانها من تطور العلم فى تاريخ البشرية ، ودون أن يتعرف بعض شخصياتها الخالدة كالجاحظ والدميرى وابن البيطار وجابر وابن الهيثم وغيرهم . وقل مثل ذلك فى طالب الطب وطالب الهندسة والعمارة وغيرهما من طلاب المعرفة .

ومن الانصاف أن نشير هنا إلى نماذج من بعض جهود علمائنا المحدثين فى سد هذا النقص : الأول ما صنعه الدكتور طه حسين حين دعى منذ سنوات للمحاضرة بكلية الطب بالقصر العينى ، فقد جعل موضوع محاضرته - على ما أذكر - مناظرات الطبيب البغدادى ابن بطلان مع معاصره الفيلسوف المصرى ابن رضوان ، وكلاهما عاش فى القرن الخامس الهجرى .

والثانى الدكتور محمد كامل حسين المدير السابق لجامعة عين شمس فقد حضرت له منذ عشر سنوات محاضرة فى كلية العلوم بالاسكندرية موضوعها جهود العرب فى علم الكيمياء ، والثالث الأستاذ نظيف المدير السابق لجامعة عين شمس فقد توفر على دراسة نظريات العالم الرياضى والطبيعى المشهور « ابن الهيثم » الذى عاش معظم حياته العلمية فى مصر ، وتوفى بالقاهرة سنة ٤٣٠ هـ . ولا شك أن هنالك جهودا أخرى فى هذا الاتجاه لغير هؤلاء من رجال الفكر المعاصرين .

ان شبابنا المثقف فى حاجة إلى استكمال المعارف التى لابد منها فى تكوين شخصيته ووعيه : فليس أضر على هذا الشباب من أن ينشأ غافلا عن كثير من مقومات حضارته ، وعن مكان تلك الحضارة من تاريخ الانسانية . انه فى حاجة إلى أن يلم بالحالة التى وصلت إليها الحضارات القديمة قبيل الاسلام فى فارس والهند والامبراطورية الرومانية ومصر والمغرب ، وإلى أن يعرف الأسس والتوجيهات الكبرى التى وضعها الاسلام لرفع الانسانية إلى المستوى اللائق بها ، وإلى أن يعرف

كيف انتشر الاسلام فى تلك الممالك فى مرحلة قصيرة من الزمان ، وماذا كان موقفه من أهل العقائد الأخرى ، وعنايته بهم فى البلاد التى دانت لسلطانه ، وكيف كان حرصه على أن يفيد ثقافاتهم ، ويؤلف من تلك الثقافات تراثا إنسانيا عاما يتسع لجهود المفكرين والباحثين من مختلف البيئات والأجناس . ولعل مثلا واحدا هنا يكفى فى الدلالة على حرص الاسلام على ذخائر الثقافة : يذكر التاريخ أن الخليفة المأمون حين هادن صاحب « قبرس » أرسل إليه يطلب خزائن كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليه أحد أبداً ، فأرسلت إليه ، وأنه صالح صاحب الروم على أن يدفع إليه ما عنده من كتب القدماء ، وأرسل بعوثا من ثقاته من المسلمين والنصارى لنسخ مالا يتأتى لملك الروم إخراجه من الكتب ، فاجتمع للمأمون بذلك خزانة عظيمة - فوق ما حمل إليه من الشرق والغرب - وجعل « سهل بن هارون » الكاتب المشهور خازنا لها .

والشباب محتاج أن يعرف كيف أثر الاسلام فى حضارات الأمم الأخرى ، وكيف تأثرت بها حضارته ، ثم ماذا أضاف إليها من جهود مفكريه ، وكيف كانت حضارته عاملا كبير الأثر فى حركة الاحياء وفى نهضة أوربا الحديثة . هو محتاج إلى هذا كله ليصحح فكرته عن الاسلام وحضارته : فلم يكن الاسلام مجرد ثقافة روحية ، ولم تنحصر حضارته فى الأدب والفن والفلسفة والتصوف ، ولم يكن التعصب وضيق الأفق من خصائصه ، ولا كانت حضارته تراث جنس واحد أو أمة خاصة بين الأمم . لقد أنشأ الإسلام حضارة واسعة غنية ، فيها الروح والمادة ، وفيها المعرفة والعمل ، وفيها الأدب والعلم ، اتسع صدرها لكل نافع من ذخائر الحضارات القديمة ، وطبعت تطور الإنسانية بطابعها عدة قرون ، ثم تلقى الغرب عنها مبادىء النهضة فى العصور الوسطى ، وأخضع نفسه لمؤثراتها . واعترف علماؤه بهذا الأثر ، وكتبوا فيه الرسائل والكتب .

هذه الحقائق التى نسوقها هنا فى صلة الإسلام بالحضارة يمكن استثمارها عمليا ، بأن نجعل من الدراسات الأصيلة فى تعليمنا الثانوى درسا للحضارة الإسلامية بكل عناصرها ومقوماتها ، وبأن ننشىء كرسيا أو أكثر فى جامعاتنا لتاريخ العلوم ، وبأن يوجه بعض علمائنا جهودهم لاحياء التراث العلمى

الإسلامى ، كما يفعل زملاؤهم فى ميادين الأدب والفلسفة ، وبأن تؤمن الكليات العلمية عندنا بضرورة تعريب مناهجها ، واصطناع اللغة العربية أداة للبحث والتدريس فيها . هذه النقطة الأخيرة تثير شيئاً من النقاش والجدل ، فإن بعض علمائنا فى ميادين الطبيعة والكيمياء والأحياء وغيرها لا يزالون يرون من الأوفق أن تدرس هذه المواد فى جامعاتنا بلغة أجنبية - كالإنجليزية - مثلا - معللين هذا بأن المصطلحات والمراجع والبحوث فى هذه الميادين فى الوقت الحاضر موفورة فى اللغات الأجنبية ، وبأن محاولة تدريس هذه المواد باللغة العربية يحتاج إلى مجهود جبار فى تعريب المصطلحات وفى تأليف الكتب بالعربية ، وبأن البحث الذى يقوم به عالم مصرى وينشره بالعربية لا يجد طريقه فى سهولة إلى البيئات العلمية الغربية .

هذا كله صحيح ، ولكن للحياة الإنسانية الراقية قيمتها التى لا تستقيم بدونها ، ومن بين هذه القيم أن تستكمل الأمة مقوماتها الثقافية ، وأن يكون لها كيانها الفكرى ، وأن تصل حاضرها بتراثها الماضى ، وفى كل هذا تلعب اللغة القومية الدور الأكبر . وقد نجحت مصر فى مستهل نهضتها فى القرن التاسع عشر فى تذليل هذه الناحية كما نجحت الحضارة الإسلامية فيها كذلك فى العصر العباسى ، فنشطت حركة الترجمة فى العصرين ، وزودت الثقافة القومية بزاد خصب من ثمار الحضارات الأجنبية . ولعل هذا يفسر حكمة الإسلام فى عنايته باللغة العربية ، ونشره إياها فى كل مكان تلى فيه كتابه وانتشرت مبادئه ، واتخاذه منها أداة قوية من أدوات الترابط والتعاون والوحدة بين الأمم الإسلامية .